من وحي الصوم :

عشـــــاق الطعام !!

للشيخ محمد رجب البيومي

النهار طويل ممل ، والهيظ لافح محرق ، وقد هجم رمضان على الناس بلا هوادة ، فجفف الحلوق وطوى البطون ، وأخذنا نتلمس الليل فلا نكاد نظفر به لقصر مدته ، وسرعة دورته ، وكم امتدت الأيدي إلى عقارب الساعات تستحثها السير ، وتسألها العجلة ، فتمضي بطيئة ثقيلة ، وما تتم دورتها المحددة حتى تهن العزائم بعد قوة ، وتستسلم الأجسام الفتية إلى الضعف والإعياء

ولقد بينت في العام الماضي على صفحات الرسالة كيف وقف فريق من الأدباء موقف العداء الصريح من هذا الشهر الكريم فأوسعوه ما لا طاقة له باحتماله من الذم والقدح ، وأريد اليوم أن أرفه عن القراء بحديث قوم أخلصوا لبطونهم واسترسلوا مع شهواتهم فهم يتفقدون الطعام في كل زمان ومكان ، حتى إذا اشتموا رائحته سقطوا عليه كالضواري الفاتكة ، وما أجمل أن نشيد بذكرهم في هذه الآونة ، لنتعاض عن الطعام بالحديث عن أبطاله الأفذاذ وفرسانه المغاوير .

وإن تك قد منعت لقاء ليلى فني أخبارها أرج يفوح

ونحب أن نعلن أن التفنن في الأكل والشرب ليس مذمة تشين صاحبها ، فقد أباح الله لنا أن نأكل من الطيبات ما لذ وراق « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » كما حرص عز وجل على أن يسهب في غير موضع من القرآن في وصف ما بالجنة من فاكهة ولحم طير وخمر ولبن وعسل . لما يعلمه جل ذكره من لهفة ابن آدم على الطعام ، وتطلعه إليه في شوق وانكباب .

ونحن نرى رجال الصوفية وهم المثل الأعلى في التقشف والزهد لا يتحرجون من الطعام الكثير متى وجدوه ، فقد كان عمر بن الفارض رضي الله عنه بطيئاً سميناً يأكل ويأكل حتى يلفت إليه الأنظار . وكان إبراهيم بن أدهم يتفق معه في مذهبه ، فقد دفع إلى بعض إخوانه دراهم عديدة وقال : خذ لنا بهذه زبداً وخبزاً وعسلا . فقال يا أبا إسحاق : بهذا كله ؟ فقال إبراهيم ابن أدهم : ويحك ، إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال .

كما روى عن سفيان الثوري قصة عجيبة فقد جلس على مائدة مليئة وفوقها حمل شهي ، فأخذ يأكل مع أصحابه بنهم ، فقال صاحب المنزل : يا غلام ارفع المائدة إلى الصبيان ، فرفع الحمل إلى داخل البيت . فقام الثوري يمدو خلفه . فقال صاحب المنزل إلى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال آكل مع الصبيان . فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل ثانية إليه

ولقد طالعت في كتب المتصوفين اصطلاحات عجيبة تدل على كلفهم بالأكل والمشرب . فالحمل عندهم هو الشهيد بن الشهيد ، والقطائف هي قبور الشهداء ، والفالوذج هو خاتمة الخير ، واللوزينج هو أصابع الحور ، وهذا قليل من كثير جداً ذكره الثعالبي في كناياته ، والأصفهاني في محاضراته فليرجع إليهما من شاء

وإذن فالكلف بالطعام ليس بمذموم على إطلاقه ، ولكن لكل شيء نهاية ، فإذا أدى الكلف إلى النهم والشره فذلك ما لا يطاق معه صبر واتئاد . وأذكر أن صحابياً جليلا — أظنه ابن عباس — دخل عليه سائل نهم فأكل أكلا عنيفاً ، فجعل ينظر إليه في تعجب ، حتى إذا خرج من عنده قال لخادمه إياك أن تدخله مرة أخرى ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء

ويعجب المطلع على الأسفار الأدبية حين يجدها متخمة بأخبار الكثيرين ممن أطاعوا شهواتهم فجن جنونهم بالطعام ، ينصبون له الحبائل ، ويتصيدونه من مظانه ، باذلين ما يملكون من جهد في تحقيق رغبات أمعائهم ، سالكين شتى الطرق المباحة والمحرمة ، لا يزعهم وازع من خلق ، ولا يقف أمامهم زاجر من ضمير ، حتى كان من أحدهم أن رفع يده إلى السماء — حين قيل له هذه ليلة مباركة — فقال : اللهم اجعل التخمة دائي وداء عيالي . وسلك نهجه شره آخر فقال : اللهم إني أسألك ميتة كيتة أبي خارجة ، أكل حملا وشرب معسلا ونام في الشمس ، فلقي الله شبعان ريان دفآن ملآن ! !

ومن المدهش الغريب أن يجاوز النهم طبقات العامة والدهماء إلى الملوك والخلفاء ، وخاصة رجال العصر الأموي فقد أطلقوا العنان لملذاتهم ، ونصدوا الموائد الدسمة لرغباتهم ، وكان كل خليفة ينظر إلى طعام من قبله فيزيد عليه متفنناً متخيراً ، وكأن الطعام قد صار كل شيء في الدولة ، فهو الميدان الأول للتنافس والمباهاة !

وقد انتقلت حمى الجشع والنهم من الخلفاء إلى الأمراء والحكام فى هذا العصر الشره ، فكان عبيد الله بن زياد يأكل قبل غدائه أربع خرادق أصبهانية . وكان الحجاج بن يوسف ينسج على منواله ، قال سلم بن قتيبة : عددت للحجاج أربعاً وثمانين لقمة ، فى كل لقمة رغيف من خبز ، وفى كل رغيف ملء كفه سمك شهى . وكم تندر العرب بنهم خالد القسرى وعبد الله ابن المغيرة الثقفى ، مما يؤكد لنا أن الناس على دين ملوكهم فى كل زمان .

ونبدأ بمعاوية ، فنذكر أنه كان ذا أنياب حادة ، وأضراس مفترسة ، تأتيه المائدة محملة مثقلة فترجع خاوية خالية . وكانت الوفود تترى عليه من القبائل النائية فتعجب لما تشاهد من طعامه وشرابه ، وتتحدث بذلك فى شتى الأصقاع ، حتى قال فيه الوليد بن عقبة :

إذا ماخرجنا من دمشق فلا نعد لها أبداً ما دام فيها الجراضم

وأهل اللغة يقولون الجراضم هو الواسع البطن الكثير الأكل

ثم نثنى بهشام بن عبد الملك فنسجل له مهارته النادرة فى هذا المضمار ، فقد خرج للتنزه ذات يوم فرأى راهباً يتحنث فى بستان له ، فدخل عليه فأخذ الراهب يجمع له من الفاكهة ما يقدم عادة للملوك والخلفاء ، وهشام يأبى على ما يجيئه غير مقتصد فى نهمه ، ثم قال له : أتبيعنى هذا البستان ؟ فسكت الراهب ولم يجب ، فقال له : مالك لا تجيبنى ؟ فقال وددت لو مات الناس جميعاً غيرك ، قال : لماذا ويحك ؟ فقال الراهب : عسى أن تشبع !

أما الوليد بن يزيد فلم يكتف بالبطولة فى ميدان الطعام بل ضم إليها بطولة أخرى فى ميدان الشراب ، قال ابن أبى الزناد كنت عند الوليد ذات مساء فدعا بالعشاء فتعشينا ثم جاءت المغرب فصلينا ، وجلس ثم قال اسقنى ، فجاءوا بإناء مغطى وجره بثلاث جوار فصففن بينى وبينه حتى شرب ودهش . فتحدثنا واستسقى ، ثم ما زال كذلك حتى طلع الفجر ، فأحصيت له سبعين قدحاً من الشراب !!

وقد يظن كثير من القراء أن هذه الأخبار ملفقة مصنوعة قد ألصقت بأسمائها إلصاقاً لما يرون من غرابتها العجيبة ، وأنا لا أرتاب فى صحتها لحظة واحدة ، لأننا نشاهد فى عصرنا الذى نعيش فيه من يزيدون شراهة ونهماً عمن ذكرنا من الخلفاء ، فعندك « فقهاء »(١) الريف يجلسون على الموائد المتعددة فى ساعة واحدة دون ملالة أو سأم ، وكأنهم يرحمون الخدم فيغسلون الأطباق غسلا لا يحتاج معه إلى تنظيف وتجفيف . ورحم الله الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى فقد ذكر فى الجزء الثانى من المختار ما رآه بعينه من الجشع والشره دون أن يخبره به مخبر ، وهو عندنا صدوق مصدق . ولم لا أعلن القراء أنى شاهدت نهما يأكل من سفط مملوء بالخبز اللين والجبن — وكنا نركب القطار من المنصورة إلى الزقازيق — فما كدنا نقطع الطريق حتى كان صاحبنا قد ترك الوعاء خالياً مما فيه ، وكان يستعين على أداء رسالته الجسيمة بالشراب المثلج بين الفينة والفينة حتى وفق فى مهمته أكبر توفيق !! فهل نشك بعد ذلك فيما ترويه الكتب من أنباء؟

أما الطامة الكبرى فهو سليمان بن عبد الملك فقد فاق من تقدمه فى مضماره ، وتحدث الناس بنهمه كما يتحدثون عن معجزة خارقة أخذت بمجامع الألباب ، وهم يروون له قصة عجيبة نسمعها فتدعنا فى حيرة منها ومنه ، وما ظنك بمن يأكل فى مجلس واحد جدياً مشوياً وخمس دجاجات وقصعة كبيرة من الثريد ثم يقعد ليشتكى الجوع ! ! ولقد كان جشعه هذا سبب موته ببطنته ... قال أبو الحسن المدائنى أقبل نصرانى إلى سليمان بن عبد الملك وهو بدابق بسلتين ، إحداهما مملوءة بيضاً والأخرى مملوءة تيناً ، فقال قشروا ، فجعل يأكل بيضة بيضة ، وتينة تينة ، حتى فرغ من السلتين . ثم أتوه بقصعة مملوءة مخاً بسكر فأكله فأتخمه ، فمرض ومات صريع الطعام ! !

ونعرج على خلفاء العصر العباسى وأمرائه فنذكر أنهم ضربوا فى هذا الباب بأوفر سهم ، ويكفى أن نعلن أن الواثق والمتوكل والمستعين والمنتصر والمعتمد لم يكن يعنيهم من أمور الدولة ومشاغلها غير الطعام والشراب . وكانوا إذا فرغوا من الموائد انتقلوا إلى الحديث عنها مع من يلوذ بهم من الأمراء والسمار ، حتى ليجوز لنا أن نسمى هذا العصر عصر الموائد والولائم — كما يقول الأستاذ العقاد — وهل رأيت قبل المتوكل على الله خليفة غضب على سميره ونفاه من مجلسه لأنه لا يتفنن فى الطعام ؟ وهل رأيت أسفاراً ضخمة كتبت فى هذا الموضوع بذاته فى غير زمان بنى العباس ؟ فقد ظهرت ثلاثة كتب فى فن الطبيخ وحده وضمها أحمد بن يوسف الكاتب ، وجحظة البرمكى ، وإبراهيم بن العباس الصولى ، « وخفت مذمة النهم لأنه أصبح قدرة وعلماً وظرفاً ، وكأنه فى ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى

(١) فقيه القرية : هو مقرئها الذى يحفظ القرآن .

اللامة ، وربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ، ومع كل منهم طعامه يتفكهون باستعراض ألوانه والمقابلة بين صناعاته وطعومه[1] »

وتسألني لماذا أولع المؤلفون بتسجيل تهم الأمويين ومذمتهم دون العباسيين مع أن بني أمية لم يبلغوا شأوهم في هذا المضمار ؟

والجواب أن خلفاء العصر الأموي مبتدعون مخترعون ، فحقت عليهم اللامة والمذمة دون من ترسموا خطواتهم ، لا سيما وقد حكموا الناس بعد الخلفاء الراشدين مباشرة ، وهم كما نعلم أهل تقشف وورع فكانت عورتهم واضحة ، وسيئتهم بلقاء ، وليت شعري أين الأرض من السماء ؟ !

هذا ولن يتعجب أحد من ميتة سليمان بن عبد الملك بسبب بطنه ، فكثير من الآكلين يرون من الفخر أن تحين آجالهم في معركة حامية تستخدم فيها الأنياب والأضراس ، وتدور رحى الخضم والمضغ ، وهنا تكون الشهادة في ذمة الشره والنهم ، وإن قائلهم ليصيح :

ألا ليت لي خبزاً تسربل رائباً وخيلا من البرني فرسانها الزبد
فأقضي فيها بينهن شهادة بموت كريم لا يعد له لحد ! !

وخيال هذين البيتين يعطيك فكرة جيدة عن النضوج الذهني لعقلية قائلها ، ويخبرك أن بين المهومين من صقله الطعام ، وثقفه الشراب فأتى في شعره بالتركيب المتسق والمعنى البارع ، والعقل السليم في الجسم السليم !!

وأنت لو نظرت إلى أجوبتهم المسكتة ، وردودهم المفحمة لعلمت أن وراء هذه البطون المكتظة عقولا فذة مفكرة تفحم مناظرها وتستحوذ على الإكبار والإعجاب ، ودونك فاستمع هذه النادرة :

كان للمغيرة بن عبد الله الثقفي وهو على الكوفة جدي يوضع على مائدته فلا يأكل منه ، فتقدم أعرابي وتعرق عظامه ، فقال : يا هذا أتطالب هذا البائس بزعل ؟ هل نطحتك أمه ؟ فأجابه على البديهة ؟ وأنت شفيق جداً عليه هل أرضعتك أمه ؟

وهذا الجواب من الابداع بمكان وهو ينفي تهمة البلادة التي تلصق بهذه الطائفة إلصاقاً ، مع أن الذكاء والغباء لا يأتيان من القناعة أو الشراهة ، بل هما مما ركب في النفس يوم أن ذرأها الله وإلا فلدى قصة عجيبة تدل على ذكاء لماح ونضوج فذ ، وما أظنها تدع للقارىء شكا في صحة ما أقول :

استضاف أعرابي صديقه وكان نهماً أكولا ، فقدم إليه فخلا من الأوز ، وكانت الأسرة جميعها تأكل معه ، فأخذ الضيف الرأس وأعطاها لصاحبه ، والعجز فأعطاه لامرأته ، والجناحين فأعطاهما لابنيه ، والساقين فأعطاهما لابنتيه ، ثم هجم على الباقي فما ترك منه شيئاً !! وحين اختلى الرجل بزوجته صمم على أن يكثروا من اللحم ما دام الضيف على هذا الجانب من الشراهة . فأحضر على المائدة في المرة الثانية خمس دجاجات ، وانبرى الضيف للقسمة فقال أأقسم بالشفع أم بالوتر ؟ فقيل له بالوتر ، فأعطى الرجل وامرأته دجاجة وقال ثلاثة ثلاثة [1] وأعطى الولدين دجاجة وقال ثلاثة ثلاثة ، وأعطى البنتين دجاجة وقال ثلاث ثلاث ، ثم أشار إلى نفسه وأخذ دجاجتين وقال ثلاثة ثلاثة ! ! وهنا صاحت المرأة : نريد القسمة بالشفع ، فأعطى الرجل وابنيه دجاجة وقال أربعة أربعة ، وأعطى المرأة وابنتيها دجاجة وقال أربع أربع ، ثم أشار إلى نفسه وأخذ ثلاث دجاجات قائلا أربعة أربعة ! ! فأكل الجميع في وجوم ثم انصرف الضيف بعد ذلك مشهوداً له بالبراعة والتوفيق ! !

(البقية في العدد القادم) محمد رجب البيومي

(١) ابن الرومي للأستاذ العقاد

(١) أي أن الرجل وامرأته اثنان والدجاجة الثالثة ... وهكذا .

ظهر حديثا :

الطبعة الجديدة المزيدة من كتاب

في أصول الأدب

يطلب من دار الرسالة

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشا